فصلنامهٔ ادبیّات شیعه
سال اول، شماره دوم
پاییز ۱۳۹۲

(الوَلاء و البَراء بین الرّضی و دعبل الخزاعی)*

الدکتورحسن دادخواه تهرانی**
سمیر پویان‌پور***

الملخص

التَّولّی والتبری أصلانِ هامّان فی دائرة المعتقد الإسلامی إذ هما ممزوجانِ بتوحید الله تعالی و نبوّة حبیبه المصطفی صلی الله علیه و آله و هما بمعنی أن نُحِبَّ مَن أحَبَّه اللهُ و رسولُه و أن نُبغضَ مَن أبغضه اللهُ و رسولُه و قد اهتمّت الشیعة و شعراؤهم بهذه المهمة و أحبّوا أهلَ بیت النبی صلوات الله علیهم أجمعین لِما ورد فی القرآن بأنّ الله طَهَّرهم و کذلک وصایا جمة من کلام الرسول صلی الله علیه و آله فیهم لتشیید أمرِهم و أنَّ من أحبهم فقد أحبّ اللهَ تعالی و من أبغضهم فقد أبغض اللهَ، لذا أخذوا یتولونهم موالیَ و سادة و یتبرّؤون مِن أعدائهم و ظالمیهم حتی سرَی هذا الولاء و البراء فی جمیع معتقداتهم و فی نظم أشعارهم .

یسعی الباحث فی هذا المقال أن یدرُسَ بعض مظاهر التولی و التبری کالحبِ و البغضِ و الحزنِ و الفخرِ عند دعبل الخزاعی و الشریف الرضی و ذلک من طریق الخوض فی أشعارهم و مقارنة بعضهم بعضاً، کما یحاول أن یبحث عن مدَی عاطفتِهما و کیفیّةِ تعبیرهما عن هاتین الظاهرتین، محلّلاً بعض الأسالیب الفنّیة الأدبیة.

المفردات الرئیسة: التولی و التبری، الشعرالشیعی، دعبل الخزاعی، شریف الرضی

---

* تاریخ دریافت: ۹۱/۱۱/۲۲ تاریخ پذیرش: ۹۲/۳/۱۳
** استاذ مشارک بجامعة شهید تشمران – الاهواز. h.dadkhah@scu.ac.ir
*** طالب الماجستیر – قسم اللغة العربیة و آدابها بجامعه شهید تشمران –الاهواز samirkhzoba@yahoo.com

۱- المقدمة

إن الموالاةَ و البراءةَ أصلان مِن أصولِ الدين الحنيف بالمعنى الأعم و معناهما أن نحب اللهَ و رسولَه (ص) و الذين يحبهم الله و هم أولياؤهُ المصطفون و عبادُه الصالحون و على رأسهم الأئمة المعصومون صلوات الله عليهم أجمعين، و أن نبغض أعداءَ اللهِ و رسولهِ و أهلِ بيتِ رسوله، و نُعادى ظالميهم و الغاصبين حقَّهم. فملخص القول أنّ معنى التولّى و التبرّى أن نُحبَ للهِ و أن نُبغضَ للهِ و هما مِن الإيمان بل شرط الإيمان و أوثقُ عرى الإيمان كما قال رسول الله صلى الله عليه و آله: أوثقُ عُرىَ الإيمان الحبُّ فى الله و البغضُ فى الله (الطباطبايى، ۱۴۳۰: ۱۹/ ۲۰۶)، فقد قال الله تعالى: ((لا تَجدُ قوماً يؤمنونَ باللهِ و اليومِ الآخرِ يُوادّونَ مَن حادَّ اللهَ و رسولَه و لو كانوا آباءَهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم)) (المجادلة، ۲۲){ فالإيمانُ الصادق بالله و اليوم الآخر لا يجامعُ موادّة أهل المحادّة و المعاندة من الكفار و لو قارنَ أى سبب من أسباب المودّة كالأبوّة و البنوّة و الأخوّة و سائر أقسام القرابة، فبين الإيمان و موادّة أهل المحادة تضادّ لا يجتمعان} (الطباطبايى، ۱۴۳۰: ۱۹/ ۲۰۳) و هذا معنى الأخص للولاء و البراء و هو رأىُ الشيعة فى الحب و البغض و هما فرعانِ مِن فروع الدين عندهم ملازما أصلى التوحيد و النبوّة مِن أصول الدين الإسلامى. كذلک أنه مِنَ البديهىّ حبّ الشئ مساوٍ لحبِ مستلزماته و بغض الشئ محاذٍ لبُغضِ ملزوماته، إذ لا يستطيع أحدٌ أن يقولَ أحبُ اللهَ و رسولَه لكنى لا أحب أهلَ بيت النبى صلى الله عليه و آله أو أن يقولَ أبغض أعداءَ الله و أعداءَ رسوله لكنّى لا أبغض أعداء أهل بيت الرسول صلوات الله عليهم أجمعين، و هذا محلُّ النزاع بين الشيعة و السنة. أما المستفاد من الروايات المتواترة أن أهل البيت هم: علىّ و فاطمة و الحسن و الحسين، كما فى مسند الإمام أحمد بن حنبل ج۶، و مستدرک الصحيحين ج۳، و فى تفسير الدرّ المنثور للسيوطى، و كنز العمال ج۷، و مجمع الهيثمى ج۹ (الفيروزآبادى، ۱۴۲۴:

۱ /۲۶۴) فقد أوجب الرسول صلی الله علیه و آله حبَّهم و موالاتهم، و البراءة و المعاداة لأعدائهم فی غیر حدیث، فمِن جملة ذلک عن عمار بن یاسر قال: سمعت رسوال الله صلی الله علیه و آله یقول: أوصِ مَن آمن بی و صدَّقنی، بالولایة لعلی فإنه مَن تولاه فقد تولانی و مَن تولانی فقد تولَّی الله و مَن أحبَّه فقد أحبّنی و من أحبّنی فقد أحبَّ الله و من أبغضَه فقد أبغضنی و من أبغضنی فقد أبغض الله عزّوجلَ (الطبری، ۱۴۲۸: ۱۶۷) کذلک قال صلی الله علیه و آله: کَذبَ مَن زعَم أنّه یحبنی و یبغض هذا علی بن ابی طالب (نفس المصدر) أیضاً فی مستدرک الصحیحین ج۶، و کنزالعمال ج۶، و میزان الاعتدال للذهبی ج۲ و ذخائر العقبی: أن رسول الله صلی الله علیه و آله قال: یا فاطمة إن الله عزّوجلّ یغضبُ لغضبکِ و یرضی لرضاکِ (الفیروزآبادی، ۱۴۲۴: ۳ /۱۸۱) و لا عجبَ إذ بُغضُ فاطمة مترتّبٌ علی بُغضِ الرسول، و بغضُ الرسول الأعظم مترتّبٌ علی بُغضِ الله تعالی، فقد قال رسول الله صلی الله علیه و آله: فاطمةُ بضعةٌ منّی فمَن أغضبها فقد أغضَبنی (البخاری، ۱۴۲۸: ۹۱۸) و کذلک عن أبی هریرة قال رسول الله صلی الله علیه و آله: مَن أحبّ الحسنَ و الحسین فقد أحبّنی و مَن أبغضهما فقد أبغضنی (الطبری، ۱۴۲۸: ۱۶۹) فکما هو الواضح إذا کان حبّ الرسول یترتّب علی حبّ الله، و حبّهم مترتب علی حبّ الرسول، فلاریبَ أنّ حبّهم هو حبّ الله عزّوجلّ. فمِن جملة الواجبات التی لابدّ أن یهتمّ بها جمیع المسلمین و یعملوا بمضمونها هما التولی و التبرّی و قد اهتمّت الشیعة بهما و برَزا کظاهرتان فی معتقداتهم و أفعالهم و أقوالهم و منظوماتهم، فقد جعلوهما أساساً للشّعرِ الملتزِم و قد أجادوا فیهما و لکن تختلف تعابیرهم حسب العصور، و من المشهورین فی ذلک؛ دعبل بن علی الخزاعی شاعر العصر العباسی الاول و الشریف الرضی شاعر العباسی الثانی فقد ندرس بعض ما نظموا إن شاء الله تعالی.

* * *

قد ثبَت أنّ التولی و التبری هما الحبُّ لله و البغضُ لله و کلّ منهما یحکی لنا عن حقیقة مهمة فی واقع الحیاة، فإنه یتوجّب علی الإنسان المسلم أن یحبّ من یحبّه الله و یکره من یبغضه الله تعالی و أن یتّخذَ من الرّسول و الأئمة المیامین صلوات الله علیهم أجمعین أسوة له فی حرکتِه المنفتحة علی الله و الحقّ، بحیث ورَد فی القرآن الکریم أنّهما مِن علامات الایمان، و أنّ سعیَ الإنسان فی الإیمان بالله لا یکون مثمراً بدونهما، و معهما سوف تقبل منه سائر العبادات و الطاعات . قد أدرک الرضی و کذلک الخزاعی هاتین المهمتین کسائر شعراء الشیعة و لهذا نجد بعض مظاهر الوَلاء و البراءة فی منظوماتهما کما یلی:

۲- مشاعر الحب و البغض

إذا علم المسلمُ أنّ محبةَ الله تعالی مقارنةٌ لتوحیده و کذلک توحید الله تعالی ممزوجٌ بحبّ الرسول صفیّه و حبیبه، حینئذٍ علیه أن یحبّ جمیعَ مَن یحبّه الله و رسوله و یتولاهم و یبغض جمیع مَن یبغضونهما.

لا ریبَ أنّه لیس هناک خلق أحبّ إلی الله و رسوله مِن أهل بیت رسول الله صلی الله علیه و آله، ففی سنن الترمذی: أنّ رسول الله صلی الله علیه و آله قال لعلیٍ و فاطمة و الحسنِ و الحسین: أنا حربٌ لِمَن حارَبتُم، و سِلمٌ لِمَن سالمتُم (الترمذی، ۱۴۲۸: ۱۰۹۶) و عن أبی هریرة قال: إنما سمّیت فاطمة لأنّ الله فطَم مَن أحبّها عن النار (الطبری، ۱۴۲۸: ۱۷۱) فالواضح أن مفتاح النجاة مِنَ النار هو حبّ أهل البیت لأنَّ الرسول الأعظم حربٌ لمن حاربوا و سلمٌ لمن سالموا، و إذا کان کذلک لابدّ للشریف الرضیّ و غیره أن یجهرَ محبتهم حیث یخاطبُهم و یقول:

فأجهرُ بالولاءِ و لا أورّی و انطقُ بالبراءِ و لا احابی

و مَـــــن أولـــى بكـــم مِنّـــى وليـــاً و فـــى أيـــديكمُ طـــرفُ انتســـابى
مُحـــبّكمُ و لـــو بغضـــت حيـــاتى و زائـــرُكم و لـــو عـــقرت ركـــابى

(الرضى، لاتا:١ /٩٣)

فإنّه يعلنُ ولائه لأهل البيت عليهم السلام جهراً و لا يخفيه و كذلک يفـتح منطقـه بالبرائة مِن أعداء أهل البيت و ظالميهم و غاصبى حقهم و لا يحابى فى ذلک، زِد على هذا أنه مِن نسلِهم فلا يزالُ محباً لهم و لو بغضته الحياة و لا ينفکّ زائر قبورهم و لـو عقرت ناقتهُ فيأتيهم مشياً على الأقدام فيطرب فى موسيقى الأبيات فرَحاً و حبّاً لهم و ما ذلک إلا لأنّ حبّهم صبغ قلبَه صبغةً لَن تتَغَيَّر:

صـــبغَ القلـــبَ حـــبّكم صـــبغة الشيـــ ـــــب و شـــيى لـــولا الـــرّدى لا يحـــول

(ن. م:١ /٦٦٠)

أما دعبل الخزاعى فيعلو أدراجاً على الرضى فى إظهارِ حبّهِ للنبى و آله صـلوات الله عليهم و يقول:

بـــأبى و أمـــى ســـبعةٌ أحببـــتُهم للّـــــهِ لا لعطيّـــــةٍ أُعطاهـــــا
بـــأبى النبـــىُّ محمـــدٌ و وصـــيُّه و الطّيّبـــانِ و بنتُـــه وابناهـــا

(الأشتر، ١۴٢٨: ٢٠۶)

و ليست له لذةٌ أزكى و أنفع مِن حبِّ آلِ البيت:

فـــى حـــبِّ آلِ المصـــطفى و وصـــيّه شُـــغلٌ عـــن اللـــذاتِ و القَينـــاتِ
إنّ النشـــيدَ بحـــبِّ آل محمـــد أزكـــى و أنفـــعُ لـــى مِـــن القُينـــاتِ
فـــاحشُ القصـــيدَ بهـــم و فـــرِّغ فـــيهمُ قلبـــاً حشَـــوتَ هـــواهُ باللـــذاتِ
واقطَـــع حِبالـــةَ مَـــن يريـــدُ سِـــواهمُ فـــى حـــبِّهم تَحلُـــل بـــدارِ نجـــاةِ

(ن. م: ٨١)

هكذا نجد الصّورَ الإبتكارية تسير جنباً إلى العاطفة الصادقة فى أرجـاء عباراتـه، فيميلُ إلى تجسيد صُوَره عن طريق الإيجاز و صدق الأسلوب، ثـمَّ يتَخيّـرهم لا مِـن حيث أنّه ينتسبُ إليهم من جانب تشيّعه بل لأنهم خيرة خلق الله على الإطلاق:

مَلامَـــک فـــی آل النبـــیّ فـــإنّهم أحبّـــایَ مـــا عاشـــوا و أهـــلُ ثَقـــاتی
تَخیّـــرتُهم رشـــداً لأمـــری فـــإنّهم علـــی کُـــلِّ حـــالٍ خـــیرةُ الخـــیراتِ
نَبـــذتُ إلـــیهم بـــالمودَّةِ جاهـــداً و ســـلّمتُ نفســـی طائعـــاً لـــوُلاتی
فیـــاربِّ زِدنـــی مِـــن یقینـــی بصـــیرةً و زِد حـــبَّهم یـــاربِّ فـــی حســـناتی

(ن. م:۲۳۴)

یتولّی دعبلُ أئمةَ الهداة رشداً لأمرهِ و حسنِ عاقبته و ینبذ إلیهم بالمودّة و یجاهـدُ فی ذلک و قد کانَ یقول: (لی خمسونَ سنة أحملُ خشَبتی علی کتِفـی، أُدوِّرُ علـی مِـن یصلبنی علیها فَما أجدُ مَن یفعل ذلک) (ابن خلّکان، لاتا:۲ /۲۶۶) فإنّه اشترَی المـوتَ بموالاتِه إیاهم، و أسلمَ نفسَه طوعاً لهم حیث یسئلُ اللهَ مُلِحّاً أن یزیدَ محبّتهم فـی قلبـه لأنّه یرَی حبّهم مِن الحسنات و لأجلِ الوصولِ إلی حبّهم یفعل کلّ ما یتطلّب الأمر:

أحِبُّ قصـیَّ الـرِّحمِ مِـن أجـلِ حـبِّکم و أهجـــرُ فـــیکم أُســـرتی و بنـــاتی
و أکـــتمُ حُبـــیکم مخافـــةَ کاشـــحٍ عنیـــدٍ لأهـــلِ الحـــقّ غـــیر مـــواتِ

(الأشتر، ۱۴۲۸: ۲۳۵)

إنّ هذا الشعور و الإحساس و العاطفة الصادقة یبلغ أقصی ما یمکن بحیث أنّه یهجرُ فی حبّهم و لأجل مودّتِهم أقربَ مَن یکون للمرء و هـم أسـرتُه، أولاده و بناتـه، و مِـن جانبٍ آخر یحبّ البعیدین منه لموالاتهم فقط و بحبّهم یرجو مِن الله القرارَ فی الجنّة:

فـــإنّی مِـــن الـــرحمن أرجـــو بحـــبّهم حیـــاةً لـــدَی الفـــردوس غـــیرَ بتـــاتِ

(ن. م:۲۳۵)

عند الخوض فی هذه الأبیات القلیلة یقشـعرُّ قلـب القـارئ لِمـا فیهـا مِـن عظـیم الأحاسیس و کثرة القوامیس حیث تتلألأ نَبضاتُ الرّحمة و المحبّة و اللّطف، فلا غروَ إذ یقول الیاقوت الحموی الخارجیّ المذهب: (قصیدتُه التّائیة فی أهل البیت مِن أحسنِ الشعر و أسنَی المدائح) (الحموی، ۱۴۳۰: ۵/ ۷۱) یرَی دعبل أنّه مِن المحال أن یدنو المرءُ إلی الله مِن غیرِ حبّ النبیّ و آلهِ و بغضِ أعدائهم لهذا یستفهم مستنکراً:

فكيـــف و أنّـــي يطالَـــبُ زُلفـــةً إلـــى الله بعـــدَ الصّـــومِ و الصـــلواتِ
سِـــوي حـــبّ أبنـــاءِ النّبـــي و رهطـــهِ و بُغـــضِ بنـــي الزّرقـــاءِ و العَـــبَلاتِ؟
و هنـــدٍ و مـــا أدّت سميـــةُ و ابنُهـــا أولو الكفـــرِ فـــي الإســـلام و الفَجـــرات؟

(الأشتر، ۱۴۲۸:۲۲۲)

فشرطُ القرب إلى الله تعالى ليس بحبّ النّبى و آله صلوات الله عليهم أجمعين فقط، بل يشترطُ كذلک بغضُ أعدائهم و ظالميهم مِن بنى الزرقاء و هى أمّ مروان بن الحكم، و بنى العبلات و هى أميّة الصغرى مِن قريش، و هند آكلة كبد حمزة عليه السلام عـمّ النبى و أسد الإسلام، و أبناء هند و هم معاوية و ابنه يزيد حيث رأت الأمّةُ الإسلامية منهم أياماً مرّة سوداء و لعبوا بخلافة الرسول و ميراثه فكان رسول الله صلى الله عليه و آله قد أخبرَ عنهم و قال: (إنّ أهلَ بيتى سيلقونَ مِن بعدى مِن أمّتى قـتلاً و تشـريداً و إنَّ أشدَّ قومنا لنا بُغضاً بنو أميّة) (النيسابورى، ۱۴۱۱: ۴ /۵۳۴) و كذلک عن أبى برزة الأسلمى قال: (كان أبغضُ الأحياء إلى رسول الله صلى الله عليه و آلـه بنـو أميّـة) (ن. م: ۴ /۵۲۸) فقد اقتدى دعبل بنَبيِّه و أبغضهم و قال فيهم:

هـــم نَقَضـــوا عهـــدَ الكتـــاب و فرضَـــه و محكمَـــــه بـــــالزّور و الشّـــــبهاتِ
و لم تـــــكُ إلا مِحنـــــةٌ كشَـــــفتهمُ بـــدِعوى ضـــلالٍ مِـــن هـــنٍ و هنـــاتِ
تـــراثٌ بـــلا قُربـــى و ملـــكٌ بـــلا هـــدىً و حكـــمٌ بـــلا شـــورى بغـــيرِ هـــداةِ

(الأشتر، ۱۴۲۸: ۲۲۲)

فمَن كان صحيحَ الإيمان بالله و رسولِه لابدّ أن يعادى هؤلاء لجناياتهم الشـنيعة و لأضرارهم على كاهل الإسلام، فالرضىّ يصرّح ببعضِ جرائم بنى أميّة مبغضاً لهم:

أ الله مـــا تنفـــكّ فـــي صـــفحاتها خمـــش لكلـــب مِـــن أميـــة عاقـــدِ
لـــئن رقـــد النصـــار عمّـــا أصـــابنا فمـــا اللهُ عمـــا نيـــل منـــا براقـــدِ
لقـــد علقوهـــا بـــالنبى خصـــومةً إلـــى الله تغـــني عـــن يمـــينٍ و شـــاهدِ
و يـــاربّ أدنـــى مِـــن أميّـــة لحمـــة رَمونـــا علـــى الشـــنآنِ رمـــيَ الـــجلامد

(الرضى، لاتا:۱ /۲۸۲)

قد تنوَّع أسلوب الموسيقى هنا و إيقاعها بتنوُّع الجوّ، فهو يذكر خصامَ النّبىّ فلابـدَّ له أن يغيِّرَ ألفاظَه مع جوٍّ مكهربٍ شديد الإرتجاف، فأنّ بنى أميّة أعداء الرسول و قـد ظلموا أبنائَه و حسبُهم أن يكون الرسول خصماً لهـم فحينئـذٍ لا يُحتـاجُ إلـى شـاهدٍ لجرائرِهم و قتلهم أولادَ الرسول و قد أخذوهم ضرباً يميناً و شمالاً:

طبعنـــا لهـــم ســـيفاً فكنـــا لِحَـــدّهِ ضـــرائبَ عـــن أيمـــانهم و السّـــواعدِ
ألا لـــيس فعـــل الأوّلـــين و إن عَـــلا علـــي قـــبحِ فعـــل الآخـــرين بزائـــدِ

(ن. م: ٢٨٢/١)

فلا يقلّ فعلُ الآخرين على الأولين منهم بل زادوهم ظلماً و طغياناً و طمسوا منبرَ الرسول صلى الله عليه و آله:

إنّ الخلافـــةَ أصـــبحت مزويـــةً عـــن شـــعبها ببياضِـــها و ســـوادِها
طَمسَـــت منابرَهـــا علـــوجُ أميّـــةٍ تـــرو ذئـــابُهم علـــى أعوادهـــا

(ن. م:١ /٢٨٠)

على إثر هذا يدعو الرضىّ غيرة الله للغضب مِن مظالمَ أجروها على النبى و عترته الطاهرة:

تـــروي مناقـــب فضـــلها أعـــداؤها أبـــداً و تســـندُه إلي أضـــدادها
يـــا غـــيرة الله اغضـــبي لنبيّـــه و تزَحزحـــى بـــالبيضِ عـــن أغمادهـــا
مِـــن عصـــبةٍ ضـــاعَت دمـــاءَ محمـــدٍ و بنيـــه بـــينَ يزيـــدِها و زيادهـــا
صـــفدات مـــال الله مـــلء أكفّهـــا و أكُـــفُّ آل الله فـــى أصـــفادها

(ن. م)

الويلُ و الغضب لآلِ معاوية و آل زياد الذين صفدوا أيدى آل محمد و ضربوهم بالسيوف:

ضـــربوا بســـيفِ محمـــدٍ أبنائَـــه ضـــربَ الغرائـــب عُـــدن بعـــدَ ذيادهـــا

(ن. م)

فالرّهبةُ و الغضب واضحانِ فى عواطفِه، و أحاسيسُه مرهفةٌ و معانيـه قويَّـةٌ، تظـلُّ أثرُها السّحرىّ مستمراً فى قلوب سامعيه، و هو يسيرُ على خطٍ مستقيمٍ فـى عاطفتِـه

ليسَ فيها صعودٌ و لا نزولٌ . كذلک دعبل يغيرُ على بنى أمية و بنى العباس و يغضب عليهم لما أوصلوا مِن ضرائر فى إرث النبى و دينِه، فغضبُه يُشعر بولاءٍ صادقٍ لآل النبى، و بغضُه لأعدائهم ممزوجٌ بحبّ آل النبى، و يعتبر آل أمية ذئاباً فريستهم الدين و يجهر عدائه لبنى العباس و يُسمّيهم بأسمائِهم بلسانِه الثّائر و يقول:

هو النفس إلا أنّ آلَ محمدٍ ... لهم دونَ نفسى فى الفؤادِ كمينُ
أضرَّ بهم إرث النبى فأصبحوا ... يساهم فيهم ميتةٌ و منونُ
دعَتهم ذئابٌ مِن أمية وانتَحت ... عليهم دِراكاً أزمَةٌ و سنون
و عاثت بنوالعباس فى الدين عيثةً ... تحَكّم فيها ظالمٌ و ظنينُ
و سمّوا رشيداً ليس فيهم لرُشده ... و ها ذاک مأمونٌ و ذاک أمين
فما قُبلَت بالرّشدِ منهم رِعايةً ... و لا لِولىٍّ بالأمانة دين
رشيدُهمُ غاوٍ و طفلاهُ بعدَه ... لهذا رزايا دون ذاک مجُونُ

(الأشتر، ۱۴۲۸ :۱۹۱)

و فى مكانٍ آخر يكرّر التّعبير عن أعدائهم بالذئاب و يخاطبهم غضباناً:

يا أميةَ السّوء ماجازيتِ أحمد عن ... حسنِ البلاء علي التّنزيلِ و السّوَرِ
خلفتموهُ علي الأبناء حين مَضى ... خلافةَ الذئبِ في أبقارِ ذي بقرِ
و ليس حىٌّ من الأحياء نعلمُه ... من ذى يمانٍ و من بَكرٍ و من مُضر
إلا و هم شركاءٌ فى دمائهمُ ... كما تشاركَ أيسارٌ على جُزرِ
قتلاً و أسراً و تحريقاً و مَنهَبةً ... فعلَ الغُزاةِ بأرضِ الروم و الخزر

إلى أن يقول:

قومٌ قتلتُم على الإسلام أوّلُهم ... حتى إذا استمكنوا جازوا على الكفُرِ

(ن. م:۱۱۲)

كانت هذه بعض مشاعر الشاعرَينِ من الحب تجاه آل البيت و البغض تجاه أعدائهم.

٣- الإعتراض

و مِن مظاهر التولّی و التبرّی أن یعترضَ المرءُ و یحتجَّ بقلبِه و لسانِه لِما یحلّ بمحبوبِه مِن مکاره مِن قِبَلِ أعدائه فعلَیه أن یذُبَّ عنه، کما أنّ الرضیّ یحتجُّ علی الذین ظلموا أهلَ بیت النبی صلوات الله علیهم و یدینهم و یقول:

لیس هذا لرسول الله یا أمّة الطغیان و البغی جزا
غارس لم یأل فی الغرس لهم فأذاقوا أهلَه مُرّ الجنا
جزَروا جزرَ الأضاحي نسلَه ثمّ ساقوا أهلَه سوقَ الإما

حتی قوله:

أدرکَ الکفرُ بهم ثاراتِه و ازیلَ الغیّ منهم فاشتفی

(الرضی، لاتا: ١ /٣٤)

لا تکادُ تقرأها إلا أحسستَ بصدقِ الإعتراض و العاطفة، و صفاء الإخلاص لآل البیت علیهم السلام ففی رشاقةٍ یعارضهم و یذکر بعض ما جنوا و ینشد مستنکراً ما جری علیهم علی مرّ الأیام و قلبُه یتفطر تفجّعاً و توجعاً بسبب ظلم الحکّامِ لهم و قتلهمُ إیاهم، ففی اختیار ألفاظه أیضاً احتجاجٌ لأنَّ جرسَ الإدانة یضرب الأذن، ثمّ أنّ اللفظَ و المعنی مناسبان. الرضیُّ یسئلُ و کأنّه یقف مقامَ الجاهل بالموضوع و یقول:

أکلّ یومٍ لآل المصطفی قمرٌ یهوی بوقع العوالی و المباتیر؟
و کلّ یومٍ لهم بیضا صافیة یشوبها الدهر مِن رنق و تکدیر؟
مغوار قوم یروع الموت مِن یده أمسی و أصبح نهباً للمغاویر

(ن. م:١ /٣٧٧)

نجد فی الأبیات: الإعتراضَ و طلب الإستعانة و الإدانة و ما هذه العناصر إلا منابع لإعلان مخالفتِه لِما جرَی. أما دعبل فیمزج اعتراضَه بالأسف الشدید مِن فعلِ آل زیاد لِما فعلوا بتراث النبی و یغیّر موسیقی الکلام بتغییر السّیاق، ففی خشونةٍ و شِدَّةٍ یندبهم جریحاً:

ألم يحزُنـــــــک أنَّ بنـــــــی زیـــــــادٍ أصـــــابوا بـــــالتراث بنـــــی النبـــــیّ؟
و أنّ بنـــــی الحصـــــان تعیـــــثُ فـــــیهم علانیـــــةً ســـــیوفُ بنـــــی البغـــــیّ؟
فـــــوا کمَـــــدی علـــــی هَفـــــواتِ دهـــــرٍ تُقَتَّـــــــلُ فیـــــــه أولادُ الزّکـــــــیّ

(الأشتر، ۱۴۲۸: ۲۷۷)

و مِن العجیب أن یحبوا النبیّ صلی الله علیه و آله لکنّهم مَلئوا نفوسَهم بحقدِ ذرّیته:

و کیـــــف یحبّـــــون النبـــــیّ و أهلـــــه و قـــــد ترکـــــوا أحشـــــائهم وَغِـــــراتِ؟
لقـــــد لاینـــــوه فـــــی المقـــــالِ و أضـــــمروا قلوبـــــاً علـــــی الأحقـــــاد مُنطویـــــاتِ

(ن. م:۷۲)

یستخدم الشاعر هنا الأسلوب الإستفهامی و ذلک عندما یرید تأکید الحقائق الموجودة مِن الظلم و الإضطهاد الجاری علی آل البیت علیهم السلام، بذلک یرید إیصالها للقارئ باعتراضٍ لعل السامعین ینتبهوا من نومهم و بعد ذلک یستخدم الأسلوب الإنشائی معارضاً و ینادی:

أری فیـــئَهم فـــی غیرهـــم مُتَقسَّـــماً و أیـــدیهم مـــن فیـــئهم صَـــفراتِ
فـــآل رســـول الله تُحـــفٌ جســـومُهم و آلُ زیـــادٍ غُلّـــظَ القَصَـــرات
بنـــاتُ زیـــادٍ فـــی القصـــور مصـــونةٌ و آل رســـول الله فـــی الفلـــوات
إذا وُتـــروا مـــدّوا إلی واتـــریهمُ أکُفـــاً عـــنِ الأوتـــار مُنقبِضـــات

(ن. م: ۷۶)

إنّه یلومُ الوجود و لا یزال یشکو المصائب اللاتی تجری علی آل الرسول صلی الله علیه و آله إلی أن یری لا جدوی من الإعتراض و النّصیحةِ فقد أعمت البغضاءُ قلوبَهم فیأتی إلی الشکوی فینادی مکسوراً:

أحـــاولُ نَقـــلَ الشـــمس مِـــن مســـتقرّها و إســـماعَ أحجـــارٍ مـــن الصَّـــلداتِ
فمِـــن عـــارضٍ لم ینتفِـــع و معانـــدٍ یمیـــلُ مـــع الأهـــواءِ و الشّـــهوات
قُصـــاراىَ منـــهم أن أمـــوتَ بِغُصّـــةٍ تـــردّد بـــین الصـــدرِ و اللّهـــوات

إذا قلـــتُ عُرفـــاً أنكـــروهُ بمنكـــرٍ و غَطّـــوا علـــى التحقيـــقِ بالشّـــبهات

(ن. م: ۷۷)

يحمل الشاعرُ بينَ ضلوعه عاطفةً دينيّةً متأصّلةً حيث يجزعُ من قِساوةِ الأعـداء و لا فائدةَ فی الإعتراض و النّصيحة ثم يأتی إلی ذروة ما يصلُه المـرء الصـادق حيـث يتمنّی الموتَ فقد ملأَ قلبَه همومٌ و غمومٌ علی سادته و مواليـه . أمّـا الرضـیّ فيهـيج عاطفَتنا و يشدّنا علی آل أميّة معترضاً محتجّاً بأنّ رسول الله صلی الله عليه و آله هـو خصمُهم فی يوم القيامة بما فعلوا بآلِه من قتلٍ و أسرٍ:

كانـــت مـــآثمُ بـــالعراق تَعـــدّها أمويـــةُ بالشـــام مِـــن أعيادهـــا
مـــا راقَبـــت غضـــبَ النبـــیّ و قـــد غـــدا زرعُ النبـــــیّ مظنّـــــةً لحصـــــادِها
باعـــت بصـــائرَ دينـــها بضـــلالها و شـــرَت معاظـــبَ غيهـــا برَشـــادها
جعَلـــت رســـول الله مـــن خصـــمائها فلبـــئسَ مـــا ذخـــرت ليـــوم معادهـــا
نســـلُ النبـــیّ علـــی صِـــعاب مطيهـــا و دمُ النبـــیّ علـــی رؤوس صـــعادها

(الرضی، لاتا: ۱/ ۲۷۹)

۴- الحزنُ و التّفجّع

مِن علامات الولاء و البراء، الحزنُ و إظهار الألم و التّضجّر لآلام المحبوب و ذلک إذا وصل مكروهٌ بمَن يواليه المرء و يظهر له المودّة، لابدّ أن يَتَفجَّع عليه و يظهر الحزن علی ما آذاه من مكاره، و إلا لم يكن صادقاً فی موالاته و محبّته إيّاه فكلّما زاده حُبّاً و وِلاءاً زاد حزنُه و كثر أنينُه عليه. الشريف الرضیّ قد تأثّر بما أصاب أهلَ البيت عليهم السلام حيث يخاطب أئمّة الهداة و يقول:

يـــا جبـــالَ المجـــد عِـــزّاً و عُلـــیً و بُـــدورَ الأرض نـــوراً و سَـــنا
جعـــل اللهُ الـــذی نـــابكمُ ســـببَ الوجـــد طـــويلاً و البكـــا
لا أری حـــزنَكُمُ ينســـی و لا رزئَكـــم يســـلی و إن طـــال المـــدی

قــد مضـــى الـــدهر و عفـــى بعـــدَكم لا الجَـــوى بـــاخَ و لا الـــدمع رَقـــا

(الرضی، لاتا:۱/ ۳۵)

لا نکادُ نقرأ هذه الأبیات إلا أحسسنا بهذه اللوعة العمیقة و هذا الحزن الدّفین و هذه العاطفة المتأجّجة التی أشعلها ظلمُ الحکام، و أن الله تعالی جعل مصائب الأئمة علیهم السلام سبب الوجد و البکاء الطویل بحیث مهما طال الزّمن لا یُنسی حزنُهم و لا یُسلی رزئُهم و لا ینقطع جریان الدّمع . ففی أحاسیسهِ الصادقة تشتعلُ النارُ لیرسمَ لوحةً کبری عَکسَ مِن خلالها مشاعرَه النّفیسة و حالتَه الشّعوریة و سرد أفکاره، و أعرب عن حالته عندما یتخیّلُ له أنّه واقفٌ فی عرصاتِ کربلاء و یتذکّر ما جری علی ذریّة الرسول و هم أجداده و یقول:

تجـــری لهـــا حبـــب الـــدموع و إنمـــا حـــبّ القلـــوب یکـــنّ مِـــن امـــدادها
یـــا یـــومَ عاشـــوراء کـــم لـــکِ لوعـــة تتـــرقّص الأحشـــاء مِـــن ایقادهـــا
مـــا عـــدتَ إلا عـــادَ قلبـــی غلّـــة حـــرّي و لـــو بالغـــتُ فـــی ابرادِهـــا
مثـــل الســـلیم مضیضـــة آنـــاؤه خـــزر العیـــون تعـــوده بعـــدادها
یـــا جـــدُّ لازالـــت کتائـــبُ حســـرة تغشـــی الضـــمیر بکرّهـــا و طرادهـــا
أبـــداً علیـــک و أدمـــعٌ مســـفوحةٌ إن لم یراوحُهـــا البُکـــاءُ یغادهـــا

(ن. م: ۱/ ۳۵)

إنّ أول ما یطالعنا فی هذه الأبیات، هذه الجذوة المتّقدة من الحبّ و الحنین الجریح فی قلب الرضیّ لآل البیت علیهم السلام، هذه المخاطبة الحزینة لأجداده التی تؤثر فی القلوب أثراً لا یزول، لأنّ فیها ظلال تلک العاطفة العمیقة الصادقة حیث لا تبرد غلّته و لا ترقی دمعتُه و دائُه لا یُداوی و کبده مقروحٌ:

ولـــی کبـــدٌ مقروحـــةٌ لـــو أضـــاعها مـــن السّـــقم غـــیری مـــا بغاهـــا بناشـــد
امـــا فـــارقَ الأحبـــابَ قبلـــی مفـــارقٌ و لا شـــیعَ الأظعـــانَ مثلـــی بواجـــد؟
تـــأوّبنی داءٌ مـــن الهـــمّ لم یـــزل بقلبـــی حتـــی عـــادنی منـــه عائـــدی

(ن. م: ۱/ ۲۸۲)

فالشاعر مقيمٌ على الحزن و هو معذورٌ عليه لا يقبل اللوم فی ذلک و ما شدّة الحزن إلا فی یوم عاشوراء:

و رُبَّ قایلـــــةٍ و الهـــــمّ یتحفُنـــــی بنـــاظر مـــن نطـــافِ الـــدمع ممطـــور
خفـــض علیـــک فللأحـــزان آونـــةٌ و مـــا المقـــیم علـــی حـــزنٍ بمعـــذور
فقلـــتُ هیهـــات فـــات الســـمع لائمـــه لا یفهـــم الحـــزن إلا یـــوم عاشـــور

(ن. م: ۱ / ۳۷۶)

لأن فی یوم عاشوراء قتل سبطُ الرسول صلی الله علیه و آله فی الطفوف مظلوماً غریباً و قد کان رسول الله صلی الله علیه و آله یقول عنه و عن أخیه الحسن: (الحسنُ و الحسینُ سیّدا شباب أهل الجنة) (التّرمذی، ۱۴۲۸ :۱۰۷۴) و کان یأخذهما و یقول: (اللهمّ إنی أُحبُّهما فأحبَّهما) (البخاری، ۱۴۲۸: ۹۱۶) فیصعب علی الرّضی قتل الإمام علیه السلام و یقول:

یـــا غریـــبَ الـــدیار صـــبري غریـــبٌ و قتیـــل الأعـــداء نـــومی قتیـــل
بـــی نـــزاعٌ یطغـــی إلیـــک و شـــوقٌ و غـــرامٌ و زفـــرةٌ و عویـــلُ
لیـــتَ أنـــی ضـــجیعُ قـــبرک أو أن ثـــراه بمـــدمعی مطلـــولُ

(الرضی، لاتا:۲/ ۶۶۰)

کلامُه جزلٌ دقیقٌ یتدفّق عاطفة و ینساب إلی القلب إنسیابَ الماء الزّلال فی الأرض السّهلة و یتمنّی أن کان ضجیع قبر الحسین علیه السلام أو أنّ دموعه سقَت قبره حیث قُتل عطشاناً و هذا الهمّ یحرّضه علی سیلان الدّموع و من المحال أن یتسلّی:

یـــا جـــدُّ لازال لـــی هـــمٌّ یحرّضـــنی علـــی الـــدّموع و وجـــد غـــیر مقهـــور
و الـــدمعُ تخرفـــه عـــینٌ مؤرّقـــة خفـــر الحنیـــة عـــن نـــزعٍ و تـــوتیر
إنّ السُّـــلوّ لَمحظـــورٌ علـــی کبـــدی و مـــا السُّـــلوّ علـــی قلـــبٍ بمحظـــور

(ن. م: ۱ /۳۷۸)

أما دعبل فيُعبّر عن شدّةِ حزنه بطول البكاء و يزيّن عباراته بكلماتٍ تشتاق إليه النفوس و تهواه بما فيها من عاطفةٍ صادقةٍ و ولاءٍ يؤثّرُ فی النفس و القلب و الضمير:

سأبكيهمُ ما حجَّ لله راكبٌ و ما ناحَ قمریٌّ علی الشجراتِ
و إنی لَمولاهم و قالٍ عدوَّهم و أنی لَمحزونٌ طَوالَ حیاتی
فیا عَینُ بکِّیهم و جودی بعبرَةٍ فقد آن للتَّسکاب و الهَملات
سأبکیهمُ ما ذرَّ فی الأفق شارقٌ و نادی منادی الخیرِ بالصلوات
و ما طلعَت شمسٌ و حان غروبُها و باللیلِ أبکیهم و بالغدوات

(الأشتر، ۱۴۲۸: ۲۳۵)

نُلاحظُ کیف یشدُّنا إلی الحزنِ و کیف یهیجُ عاطفتنا و یفجّرُ الحزنَ فی آفاقِ أنفسنا و ینشرُ عبیرَ الألم فینا و کأنّه قد سبَر عواطفنا و عرفَ دخائل نفوسنا فرُحنا نتألّم معه و نسبل الدموع و نقول أوّه لما جری علی آل الرسول ... و فی قصیدةٍ آخر یُجرّدُ و یخاطب نفسه مستفهماً:

أ أسبلتَ دمعَ العین بالعبراتِ؟ و بِتَّ تُقاسی شِدَّةَ الزّفراتِ؟
و تبکی لآثارٍ لآل محمدٍ فقد ضاق منک الصدرُ بالحسرات؟
ألا فابکهم حقاً واجرِ علیهمُ عیوناً لریبِ الدهرِ مُنسکباتِ
و لا تنسَ فی یومِ الطفوف مصابَهم و داهیةٍ من أعظمِ النّکباتِ

(ن. م: ۲۳۹)

کأنّه یَصفُ حالَه لنا فی البکاء و إظهار الحزن و یکرّر هذا المعنی فی مکان آخر و یقول:

ألا ما لعینی بالدموع استهلّت و لو نفدَت ماءُ الشّؤون لَقَلّتِ؟

(ن. م: ۲۴۲)

و هو لا یری خیراً فی الدنیا بعدَ ما جری علی آل البیت علیهم السلام فکلّ شئٍ عبثٌ و لو اضمحلّت الدنیا:

و ما خیرُ دنیا بعد آل محمد؟ ألا لا نُبالیها إذا ما اضمحلّتِ

(ن. م: ۲۴۳)

ثم يذهب بحزنه إلى ماوراء النفوس و إبكاء الآحاد و يدعو الله على الدهر و الزمان أن لا يفرحا أبداً:

لا أضحک الله سِـنَّ الـدهر إن ضـحکت و آل محمـدٍ مظلومـون قـد قهـروا

(ن. م:۲۵۸)

و يكثرُ الشاعرُ الحزنَ و البكاء على الحسين عليه السلام لِما أنّ مصابه أعظم مصيبة جرَت على عترة النبيّ صلوات الله عليهم مستفهماً كما هو دأبه:

هـلا بكيـتَ علـى الحسـين و أهلـه؟ هـلا بكيـت لمـن بكـاه محمـدُ؟

(ن. م:۲۴۶)

و فی مكانٍ آخر يقول:

يـا عـينُ جـودی بالـدّموع واهملـی وابكـی الحسـين السّـيد ابـن السـيدِ

(ن. م: ۲۵۵)

و يكون هذا حاله حتى يأتيه ألمُ السّقيم و استئصال العليل فيشكوا من ذلک إلى الله تعالى:

إلـی الله أشـكو لَوعـةً عنـدَ ذكـرهِم سَـقتنی بكـأسِ الثّكـل و الفظعـاتِ
أخـافُ بـأن أزدارهـم فتَشـوقُنی مصـارعهم بـالجزعِ فـالنخلات

(ن. م: ۲۳۱)

۵- الإنتقام و الأخذ بالثار

و من مظاهر التولّی و التبرّی هو الأخذُ بثار المحبوب أيضاً و ذلک إذا وقع ظلمٌ عليه، فيطلب المحبُّ بالإنتقام له، كما نقرأ فی زيارة عاشوراء:{و أسئل الله أن يرزقنی طلبَ ثاركم} و فی فقرةٍ أخرى يخاطب الحسين الشهيد:{يا ثار الله و ابن ثاره} فالذی

يتولّى الرّسول و آله صلوات الله عليهم أئمّةً و سادةً و أولياء مِن قِبل الله تعالى لابدّ أن يغضب على أعدائهم و يخرج عليهم و يكون طالباً بالإنتقام لهم و آخذاً بثارهم و ذلک إما هو يطلب الثار فی طوال حياته مِن أن يكون حرباً لمن حاربهم و عدوّاً لمن عاداهم بقلبه و لسانه و فِعاله، أو يندب الإمام المنتظر عجّل الله تعالى فرجَه، المذخور لأخذ الثار كما يخاطبه الرّضی و يقول:

يـــا طالبـــاً بالثـــار أعجلـــک الـــرّدی ... عـــن أن ينـــامَ علـــی وجـــود الثـــار
يعتـــادُ ذكـــرک مـــا تهـــزم مرجـــل ... و طغـــیً تغـــيض برمـــة اعشـــار
هجرت ركـــاب الركـــب بعـــدَک قطعهـــا ... هـــول الـــدُّجی و مهـــاول الأوعـــار
و عـــد مِـــن كـــلّ مفـــازة مرهوبـــة ... و امـــن كـــلّ مخـــاطر عقـــار
فـــالان يجـــررن الأزمـــة بـــدّناً ... بـــينَ الميـــاه تفـــيض و الأنـــوار

(الرضی، لاتا: ۱ /۳۷۹)

فهو يطلب الثار فی هذه الأبيات بنغماتٍ مهيّجة و الفاظ فصيحة كثيرة المعانی و كأنَّ غضبَه قد ثار مِن قلبه على لسانه حتی أثَّر على كلامه، فأتی بكلماتٍ تناسب الهَيجان و الخروج، مع موسيقی خشنة شديدة على السّمع كأنّها صوت دقِّ الحوافر على صدور الأعداء، فی هولٍ و أخطار، ثمّ يرتقب يوماً لابدّ أن يُنتقمَ فيه لأهل بيت النبی صلی الله عليه و آله:

إنـــی لأرقـــبُ يومـــاً لا خفـــاءَ لـــه ... عريـــان يقلـــق منـــه كـــلّ مغـــرور
و للصـــوارمِ مـــا شـــائت مضـــاربها ... مِـــن الرّقـــاب شـــراب غـــير مـــزور

(ن. م: ۱ /۳۷۷)

فی الواقع أنه يبتهل إلی الله تعالى على أن يأتیَ بذلک اليوم الذی فيه يُسلُّ السّيوف فی طلب ذحول أئمّته و أحياناً يُراودُه أفكارٌ مِن أنّها كيف وقعَت تلک الحادثة الدامية و لم ينزل اللهُ العذابَ؟ إذ لو كانت قد نزلت بأبناء الكفر لعجَّلَ لهم العذاب، فكيف يكون ذلک؟ لهذا يقفُ متعجّباً و يقول:

يـــا رســـولَ الله يـــا فاطمـــةُ يـــا أميرالمـــؤمنينَ المرتضـــى
كيـــف لم يســـتعجل الله لهـــم بـــانقلابِ الأرضِ أو رجـــم الســـما
لـــو بســـبطَى قيصـــر أو هرقـــل فَعلـــوا فِعـــلَ يزيـــد مـــا عـــدا

(ن. م: ۱/ ۳۴)

فهو يناديهم و كأنّه يحثّهم على الإنتقام و بألفاظٍ سهلةٍ على السمع و رقيقةٍ على الوجدان ينقل أحاسيسَه إلينا متعجّباً بِما جرى عليهم و لم ينقلب الأرضُ بهم أو يُرجموا مِن السماء، بعد ذلک يَصلُ إلى قمّة الحسرة و الآهات حيث لم يقدر على فعلِ شئٍ لطلب ثارهم و يقول:

يـــا بنـــى أحمـــد إلـــى كـــم ســـنانى غائـــبٌ عـــن طِعانـــه ممطـــولُ
و جيـــادى مربوطـــةٌ و المطايـــا و مقـــامى يـــروع عنـــه الـــدّخيل
كـــم إلـــى كـــم تَعلـــو الطغـــاةُ و كـــم يحكـــم فـــى كـــلِّ فاضـــلٍ مفضـــولُ
قـــد أذاعَ الغَليـــل قلبـــى و لكـــن غـــير بـــدعٍ أن اســـتطبَّ العليـــل
ليـــتَ أنـــى ابقـــى فـــأمترق النـــاسَ و فـــى الكـــفِّ صـــارمٌ مســـلولُ
واجـــرِ القَنـــا لثـــاراتِ يـــومِ الطَّـــفِّ يســـتَلحقُ الرَّعيـــلَ الرّعيـــلُ

(ن. م: ۲/ ۶۶۰)

يبدأ كلامه فى هذه المقطوعة بمخاطبة بنى أحمد و هم ذريةُ الرسول صلى الله عليه و آله و يعاتبهم عتاباً عفيفاً و كأنّه يستعيرُ العِتابَ بمعنى الأخذ بالثار ثم يخاطبُ فؤادَه و يُجرى مونولوجاً داخلياً بينَه و بينَ نفسِه و يستعرضُ خلالَ هذا المونولوج ما يعنّ له مِن خواطر و خلجات و ما يمرُّ به من مشاعر و أحاسيسَ و يتمنّى يومَ أخذ الثار و هو اليوم الذى يتسابقُ فيه الجماعاتُ من الخيل.

أمّا مِن ناحية دعبل الخزاعى فهو الشاعر الثائر الذى يتمنّى الأخذ بأعداء آل الرسول و يتحسّر على ما جرَى و يندبهم و ينتظر يومَ أخذ الثار يتصبّر و يقول:

وا حســـرتاهُ لكـــم جســـومٌ بـــالعَرا فيهـــا و فـــوقَ الـــذابلات رؤوسُ

صـــبراً موالينـــا فســـوفَ يـــديلُكم يـــومٌ علـــى آل اللّعـــينِ عبـــوسُ
مـــا زلـــتُ متّبعـــاً لكـــم و لأمـــرِكم و عليـــه نفســـي مـــا حييـــتُ أســـوسُ

(الأشتر، ۱۴۲۸ :۲۶۱)

فلازالَ ينتظر ذلک اليوم و لازالَ يَرجو خروج الذی يأخذُ بثارهم فالذی يبقيه حياً هو الأمل بذلک النّهوض، و إلا فماتَ غمّاً و حسرةً، فعن يقينٍ يُبشّرُ نفسَه لخروج إمامٍ لا محالةَ له خارجٌ و يتمنّی لو يكون معه:

فلولا الـذی أرجـوهُ فـی اليـوم أو غـدِ تَقطَّـعَ قلبـی إثـرَهم حسَـراتِ
خـروجُ إمـامٍ لا محالـةَ خـارجٌ يقـومُ علـی اسـمِ اللهِ و البَرکـاتِ
يميـزُ فينـا کـلَّ حـقٍّ و باطـلٍ و يجـزی علـی النَعمـاءِ و النَّقمـات
فيـا نفـسُ طيبـی ثمّ يـا نفـسُ أبشـری فَغَـيرُ بعيـدٍ کـلُّ مـا هـو آتِ
و لا تجزعـی مِـن مـدَّةِ الجَـور إنّنـی کـأنّی بهـا قـد آذَنـت بشَـتات
فـإن قـرَّب الـرّحمنُ مِـن تلـک مُـدَّتی و أخَّـرَ مِـن عمـری ليـومِ وفـاتی
شَـفيتُ و لم أتـرُک لنفسـیَ غُصـةً و رَوَّيـتُ منـهم مُنصُـلی و قنـاتی

(ن. م: ۲۳۷)

إنّه لا يجزَعُ مما يهدّده مِن عوز و حاجة و فقرٍ و إنما يلجأُ بالفِطرة إلی التّبری مِن أعداء أهل بيت النبی و مِن ثمَّةَ يتمنّی أن يأخذَ لهم الثار و إنّه ليعلم لا يكون ذلک إلا بظهور إمامٍ قد أوعدهُ الله تعالی لهذه المهمّة، فعندئذٍ يُسلّی نفسَه بذلک و يُبشّره بذلک اليوم الموعود علَّه يؤخّرُ الله تعالی أجلَه أو يُقرّب منه ذاک حتی يروّی مِن دماء الأعداء سيفَه و قناتَه، فلأجلِ الوصول إلی أمنيّتهِ و هو أخذُ الثار و ما حلَّ بالشيعة، يطلب التعجيلَ بظهور الإمام و يقول:

عَجِّـل قـدومَک يـابنَ فاطمـة قـد مـسَّ شـيعةَ جـدّک الضّـرُّ

(ن. م: ۲۵۸)

هذا حال الذی قد اكتمل إيمانه بالتولی و التبری الصادقَين، فإما أن يكونَ مشغوفاً فی حبّهم أو غاضباً علی ظالميهم أو أن يكون حريناً لِما حلَّ بهم مِن نُوَب الدّهر أو أن يكون طالباً بدِمائهم و منتقماً لهم.

۶- النتيجة

۱- إنّ التولی و التبری أصلان هامّان فی المعتقد الإسلامی و قد اهتمّت الشیعة بذلک فقد أخذوا یحبون مَن أحبّه اللهُ و رسولُه و یبغضون مَن أبغضه اللهُ و رسولُه فی السّر و العلانیة کما ورد فی الأخبار عنِ الفریقینِ کثیراً.

۲- إنّ شعر الرضیّ أشبهُ إلی الشعر القدیم و العصر الجاهلی و یحتوی مفرداتٍ أکثر، و أحیاناً نری الغموضَ اللغوی، و نستطیع أن نعتبره مجموعةً لغویة هامّةً بیدَ أنه کان فی العصر العباسی.

۳- قد اتّخذ الرضیّ عصا الإحتیاط فی ذکر مصائب أهل البیت علیهم السلام لاسیما استعمل التّقیّةَ فی ذمّ أعدائهم و ربما مدحَهم و ذلک لأسباب، أما دعبل فقد اشتری الموتَ بشعرِه الحار و لسانه الحاد، فذمَّ أعداءَ الرسولِ و أهلِ بیته و لم یُغادر صغیرةً و لا کبیرةً إلا ذکرها.

۴- نجدُ إظهار التّفجّع و التّضجّر لِما جری من مصائب علی آل البیت علیهم السلام أشدَّ حرارةً و ألماً و انقلاباً عند دعبل، حتی نستطیع أن نقول قلَّ مَن یُجاریه فی ذلک و یُساوی حزنهُ مِن الشعراء آلامَ دعبل الخزاعی و لیس هذا بمعنی أنّ الرضیّ أقلّ شأواً منه، کلا بل کان دعبل شاهراً لسانَه کالسیف ثائراً مجاهداً باکیاً علیهم، أمّا الرضیّ فقد کان کالحزین الجلیس فی بیته حیث لا ترقأ دمعتُه و لا تهدأ لوعتُه، فکلٌّ منهما آخذٌ طریقه و مسلکه و لِکلٍّ منهما فضله.

۵- أکثر التّفجّع مِن الرضی علی آل البیت علیهم السلام هو بکاء الإبن المفجوع بوالدَیه، فکثیراً ما یخاطبُ المعصومین علیهم السلام بـ (یا جد) فله أنّاتهُ المؤلمة و حنینُه الخاص الآخذُ بالأسماع، بینما تضجُّرُ دعبل علی آل الرسول هو جزع الشیعی

الموالی المخلص فی الولاء و الصادق فی الإخاء الذی اتّخذهم سادةً و قادةً و سراةً و حماةً و أئمةً و شفعاء و هو مولعٌ فی حبِهم مبغِضٌ أعدائهم، یناديهم کالفاقد جمیعَ أهله و ذویه، فله فضله.

۶- یکثُر الفخر بالإنتساب لأهل البیت علیهم السلام عند الرضیّ و قد قلّ ذلک عند باقی شعراء الشیعة و هنا مجالٌ للبحث فی معارضة آیة الکریمة حیث یقول تعالی: (فإذا نُفِخَ فی الصّور فلا أنسابَ بینهم یومئذٍ و لا یتسائلون) (المؤمنون، ۱۰۱) فمِن الجدیر أن یقوم به أحد الباحثین لأنّ الإنتساب للرسول و آله مِن أسباب النجاة، فهل ینافی هذه الآیة أم تکون مِن باب: (و أما بنعمةِ ربِّک فحَدِّث) (الضّحی، ۱۱).

۷- بما أنّ مسألتی التولّی و التبرّی تلعبان دورین هامّین فی دائرة المعتقد الإسلامی و هما أساسا طریق الوصول إلی الله تعالی، ینبغی للباحثین الکرام أن یهتمّوا بهما کموضوعَین جدیرَین بالبحث فی کلّ المجالات لاسیّما ما یدور بین العقیدة و الأدب، بینما نری العملَ فی هذا المجال ضئیلاً جدّاً.

****

المصادر

- القرآن الکریم
- ابن خلکان، شمس الدین احمد بن محمد بن خلّکان؛ (لاتا)، **وفیّات الأعیان**، تحقیق إحسان عباس، لبنان: دار صادر.
- الأشتر، عبدالکریم؛ (۱۴۲۸)، **شعر دعبل بن علی الخزاعی**، الطبعة الأولی، ایران: منشورات مکتبة الحیدریة.

❖ البخاری، ابوعبدالله محمدبن اسمعیل بـن ابـراهیم بـن بَردربـه؛ (۱۴۲۸)، **صـحیح البخـاری**، تخریج: محمد صدقی العطار، لبنان: دار الفکر للطباعة و النّشر و التّوزیع.

❖ التّرمذی، ابو عیسی محمد بن عیسی بن سؤرة؛ (۱۴۲۸)، **سُنن التّرمذی**، تخریج صدقی جمیل العطّار، لبنان: دار الفکر للطباعة و النّشر و التّوزیع.

❖ الحسینی الیزدی الفیروزآبادی، مرتضی؛ (۱۴۲۴)، **فضائل الخمسة من الصـحاح السـتة**، الطبعة الثانیة، ایران: منشورات الفیروزآبادی.

❖ الحمَوی، شهاب الدین ابوعبدالله الیاقوت بن عبدالله؛ (۱۴۳۰)، **معجم الأدباء، (إرشاد الأریـب إلی معرفة الأدیب)**، الطبعة الثانیة، لبنان: دار إحیاء التراث العربی.

❖ الحاکم النیسابوری، ابوعبدالله محمـد بـن عبـدالله؛ (۱۴۱۱)، **المسـتدرک علـی الصّـحیحین**، تحقیق: مصطفی عبدالقادر عطا، الطبعة الأولی، لبنان: دار الکتب العلمیة.

❖ الرضی، الشریف؛ (لاتا)، **دیوان**، شرح محمد بن سلیم اللبابیدی البیروتی، لبنان: مؤسسة الأعلمی للمطبوعات.

❖ الطباطبایی، محمدحسین؛ (۱۴۳۰)، **المیزان فی تفسیر القـرآن**، الطبعـة الأولـی، ایـران: مؤسسة دارالمجتبی للمطبوعات.

❖ الطبری، أبی جعفر محمدبن أبی القاسم؛ (۱۴۲۸)، **بشارة المصـطفی لشـیعة المرتضـی**، تحقیق مکتبة الکوثر، الطبعة الأولی، ایران: مؤسسة انتشارات مدین.